من التراث اللغوى

اللهجة العامية المصرية في القرن الحادى عشر الهجرى

د. رمضان عبد التواب

الشيخ يوسف المغربى هو أبو المحاسن يوسف جمال الدين بن زكريا بن حرب المغربى المصرى الأزهرى[1] ، تنحدر أسرته من أصل مغربى ، وقد ولد هو بالقاهرة فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وتوفى بها فى سنة ١٠١٩ هـ .

وكتابه : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » وثيقة لغوية مهمة ، سجل فيه صاحبه كثيراً من ظواهر العامية المصرية فى القرن الحادى عشر الهجرى . وقد وصل إلينا فى نسخة مكتوبة بخط المؤلف ، انتهى منها فى منتصف جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، أى قبل وفاته بأربع سنوات ، ثم انتقلت بعد ذلك بمدة إلى أبى عبدالله محمد شمس الدين بن أحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ ، والذى اختصرها فى كتابه الذى سماه : « القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب[2] » . ثم انتقلت المخطوطة بعد ذلك إلى يوسف الملّوى ، الشهير بابن الوكيل ، الذى نسخ مختصر ابن أبى السرور السابق[3] ، وانتقلت بعد ذلك إلى الشيخ محمد عياد

---

(١) انظر ترجمته فى ريحانة الألبا للخفاجى ٢ / ٣٢ وخلاصة الأثر للمحبى ٤ / ٥٠١ وهدية العارفين ٢ / ٥٦٦ وبروكلمان GAL II 285 ; S II 394

(٢) حققه السيد إبراهيم سالم ، وطبعته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، فى سلسلة « تراثنا » بالقاهرة ١٩٦٢ وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ص ٣٠٤

(٣) انظر مقدمة المقتضب ص ٢ — ٧

الطنطاوى المعلم الأول للغة العربية فى روسيا ، وبعد وفاته فى ١٢٧٨ هـ ، دخلت المخطوطة فى حوزة الكلية الشرقية بجامعة بطرسبرج ـ لينينجراد ، ولا تزال هناك وتحمل رقم Ms, O, 778

وقد ظهر الكتاب مصوراً عن هذه النسخة فى عام ١٩٦٨ بموسكو فى سلسلة آثار الآداب الشرقية ، وذلك بعناية الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، الذى قدم له ببحث عن المؤلف بالعربية والروسية ، وذيله بفهارس كثيرة متنوعة نافعة .

ومخطوطة الكتاب ليست كاملة ، بل تنقص إحدى عشرة كراسة ، ويبدأ النقص من أول الكراسة الثالثة ، أى فى باب الباء فصل القاف (مادة : قطرب) ، حتى نهاية الكراسة الثالثة عشرة ، أى إلى باب الفاء فصل الراء (مادة : ردف) ، وإذا كان عدد أوراق الكراسة عشر ورقات ، فالناقص ١١٠ ورقات تقريبا . وقد حدث هذا النقص بعد اختصار ابن أبى السرور للمخطوطة ، وبعد نسخ ابن الوكيل لهذا المختصر ؛ لأن نسختى المختصر كاملتان .

وهذه المخطوطة هى مسوّدة المؤلف ، ففيها تغييرات وإضافات وتنقيحات بخطه ، مثلما وقع فى صفحة (١٣ب/١٠) عند قوله : « ويقولون : لبن رايب ، ولم أر فى اللغة ما يناسبه ، لافى رأب المهموز ، ولافى راب بالألف اللينة » ، فقد ضرب المؤلف على عبارة : «ولم أر فى اللغة . . . بالألف اللينة » وكتب على الهامش : «وهو صحيح . قال المجدى : راب اللبن روبا خثر ، ولبن را يب ، أو هو مايمخض ويخرج زبده . وروبه وأرابه » . كما قال فى آخره (١٣٣ أ/٢١) : « وكتبه مؤلفه الفقير يوسف المغربى عفى عنه والمسلمين آمين » .

وقد بدأ المؤلف بالعمل فيه فى منتصف شوال سنة ١٠١٤ هـ وانتهى منه فى ليلة النصف من جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، فقد ورد فى آخره قوله (١٣٣ أ/٢) : «فإن هذا الكتاب حصل فى مدة يسيرة ، يسر الله عسيره ، فإن مافيه من المنظوم نظم حال الكتابة مع جريان القلم ، وكأنه نقل من نسخة ثَمَّ . وكانت البداية فيه فى نصف شوال عام أربعة

عشر وألف ، والختام ليلة النصف من جمادى الأولى عام خمسة عشر وألف ، مع الاشتغال بسواه من أمور المعاش والمعاد ، والقيام بأمور العيال والأولاد » .

وقد سمى المغربى كتابه فى البداية : «الفضل العام وقاموس العوام » فقال فى مقدمته (٢ أ / ٧) : «فقصد الفقير يوسف المغربى أدخله الله فى شفاعة النبى العربى أن يرتب هذا الكتاب على أبهج ترتيب ، ويهذب مايقع من عوام أهل مصر بأن يرجعه للصواب ، وهذا هو التعريب . مغترفا من القاموس والعباب ، مبينا لما حكم بخطئه أنه صواب . وسميته : الفضل العام وقاموس العوام » .

ثم تردد بعد هذا فى تسميته بتسميات أخرى ، إلى أن استقر على تسمية : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » ، وانظر فى ذلك مقدمة الناشر ص ١١ – ١٢ .

وقد عين المغربى فى النص السابق مراجعه ، فحصرها فى القاموس والعباب ، وإن كان اعتماده على القاموس أكثر من اعتماده على العباب ، وقد تأثر به فى ترتيب مادة كتابه ونبه على ذلك فى قوله (٣ أ / ١٨) : «وهو على حروف الهجاء كالقاموس مع تسامح فى الأصل والزائد » .

ومع ذلك فإنه لم يسلم من التصحيف والتحريف فى نص القاموس ، مثال ذلك قوله (٥٩ ب / ٨) : «يقولون : فلان زَعْلُوك ، يعنون أنه فقير . وكثيرا مايقع هذا من المغاربة ، يقولون على الفقراء الحجاج منهم زعاليك والذى فى القاموس : زُعْلُوك كعصفور : السمين من الإبل ، والقصير اللئيم ، جمعه زعالك وزعاليك » .

والذى فى القاموس : «الزُّعْكُوك » بكافين فى باب الكاف فصل الزاى (٣ / ٣٠٥) ولم يرد فيه : «زعلوك » بتاتا . ويظهر أن النسخة التى كانت بيده من القاموس كانت قد أهملت وضع شرطة الكاف الأولى ، على عادة كثير من المخطوطات القديمة ، فاشتبهت لذلك باللام ، مع أن وضع الكلمة فى باب الكاف كان من الممكن أن يجنبه الوقوع فى هذا التحريف .

وقد أشار المغربى إلى هذه الكلمة مرة أخرى فى صفحة (٦١ أ / ١) فقال : «الصُّعلوك كعصفور : الفقير، وتصعلك : افتقر . وهذا الذى تقول (العامة) فيه زعلوك . وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا . ولكن لم ينص عليه فى القاموس » . فهو هنا يصر مرة أخرى على ورود كلمة «زعلوك» فى القاموس بغير هذا المعنى ، وإن كان قد فطن هنا إلى العلاقة بينها وبين كلمة : « صعلوك » ؛ فقد رققت الصاد ، وجهرت لتأثرها بالعين المجهورة ، فصارت زايا ، غير أنه عكس الكلام فقال : « وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا » .

ويحكى المغربى فى كتابه كثيرا عن نفسه ، ويروى لنا بعض ما أصابه فى مراحل حياته المختلفة ، فهو يقول مثلا (٥١ أ / ١١) : « قلت : قد مرضت بهذا المرض ، أى الفواق ، حتى التبس على بعض من عادنى بالفواق عند النزع ، فظن أنى أفوق بنفسى ، أى أجود بها ، وهى على الخروج ، فذهب من وقته لقاضى البلد ، يسأله فى وظيفة لى . وقال : قد مات يوسف المغربى الآن ، وبذل فيها دنيا ، وكتبت الحجة ، فكان الشفاء فى ذلك اليوم ، ففى عقبه عادنى الأخ الأكرم سيدى محمد أبو الصواب ، ويسر الأمر ووصف لى المصطكى والعود الماوردى ، فاستعملته فبرأت ، ثم اتفق أننى سرت فى جنازة بنت من سعى علىّ ، ومشيت بالعسر ؛ لأنه لم تتكمل صحتى ، فقال لى بعض الأصحاب : عجبت منك ! هو يشيع موتك ، ويأخذ وظيفتك ، وأنت تمشى فى جنازة بنته . . . القصة ، فتعجبت وقلت : أنا لا أتشوش منه ؛ لأنى بعد الفقد لا أبالى بمن تكون فى يده ، بل كونها مع بعض الأصحاب أولى من الأجنبى ، ولم أعاتبه ، وقطعت حجته ، وذهبت رشوته » .

كما يروى قصة أخرى طريفة فى سبب تعلمه النحو وصيرورته من العلماء فيقول (٧٠ أ / ٢) : «قال الفقير مصنف الكتاب : إن من التحدث بالنعمة ماسأقوله ، وهو أننى كنت أصنع حمائل السيف فى حال الصغر . . . وذلك بعد موت الوالد ، ودفن فى البقيع

الشريف ، وجئت لمصر رأيت أخوالى يصنعونها وعلمونى ففتح الله على فيها . . . ومع شغلى أتلو القرآن العظيم وأقرأ فى سبع بجامع طولون من المغرب إلى العشاء فكنت فى أثناء القراءة أتأمل اختلاف الحركات فى الكلمات ، ولم تكون هذه الكلمة مرفوعة ، والأخرى منصوبة ، إلى غير ذلك . فسألت عن ذلك إمام الجامع ، وهو مولانا الشيخ شعيب جزاه الله عنى ، فقال لى : إذا اشتغلت بالنحو نصف سنة ، علمت ذلك خصوصا إن حفظت شيئا من متن ألفية ابن مالك ، وأعطانى إياها فكتبت منها لوحا ، وصرت أقرأ فيه ليلا ، فمنعنى أحد أخوالى عن ذلك ، وقال : مافى أقاربنا علماء تطلع عالم لمن؟ وصار ينهرنى ويقيمنى من القراءة ليلا ؛ لئلا أنعس نهارًا ، فلا أشتغل كثيرًا ، فإنه يغلب عليه حب الدنيا ، فلا زلت[1] أقرأ خفية بعد نومه حتى حفظت الألفية تماما . فقدر الله أنهم جمعوا من الحمائل ما يساوى ألوفا من الدنانير . . . فعزموا على السفر للسودان لأجل بيعها ... واتفق أن ساعدنى جمع من الناس على أنهم يتركوننى بمصر أشتغل بالعلم ، وكان خالى يوسف رحمه الله يحب لى ذلك فقام على أخيه إبراهيم فاحتج بكونى صغير السن ، وكيف نتركه وحده إلى أن سمحوا لى بالجلوس فى دكان لهم ملآنة بالقماش من سائر الأنواع ، وأن أبيع فيها وأصرف الفائدة على زوجاتهم وعيالهم إلى أن يحضروا ، فوافقت على ذلك ظاهرًا ، ثم بعد مدة يسيرة بعت السلعة وأخليت الدكان ، وأبنت الزوجات عنهم ؛ لأنهم وكلونى فى ذلك إن طالت غيبتهم ، واشتريت كتبا وجئت الأزهر والحمدلله . . . ».

ومع أن الكتاب مؤلف فى الدفاع عن لغة أهل مصر ، فقد كثرت فيه الاستطرادات لأدنى مناسبة ، كقول المغربى مثلا (٩٥أ / ١٤) : « ويقولون : فلان يبرجم : إذا كثر كلامه . ويستعملونه فى صوت الحمام ، يقولون الحمام

---

(١) هذا التعبير من التعبيرات الشائعة حتى اليوم ، وهو لحن ؛ لأن « لا » حرف نفى مختص بالفعل المضارع ، ولا يدخل على الماضى إلا إذا كان هناك عطف على منفى مثل : « ما كلمنى ولا كلمته » أو تكررت مع الماضى المتكرر ، مثل قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى » . فاذا دخلت على الماضى فيما عدا ذلك ، كان الكلام دعاء لا إخبارا ، مثل قول ذى الرمة :

ألا يا اسامى يا دارمى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

يبرجم . والذى فى اللغة : البرجمة : غلظ الكلام . والبراجم : مفاصل الأصابع . والبراجم : قوم ، فى المثل : إن الشقى وافد البراجم ،لأن عمرو ابن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى دارم ، وحلف ليحرقن منهم مائة ، فمر رجل فاشتم رائحة فظن شواء اتخذه الملك ، فعدا إليه ليرزأ منه ، فقيل له : ممن أنت ؟ فقال : من البراجم ، فكمل به مائة » .

كما يظهر فى الكتاب اهتمام مؤلفه بذكر فوائد الأعشاب والنباتات والثمار فمثلا (٩٦أ/ ٩) الثوم إذا كان مسخنا «مخرج للنفخ والدود ، جيد للنسيان والربو والسعال المزمن ، والطحال والخاصرة والقولنج ، وعرق النسا والورك والنقرس ، ولسع الهوام والحيات والعقارب والكَلب الكَلب ، والعطش البلغمى ، وتقطير البول » ، وهو إذا شوى مفيد « لوجع الأسنان المتآكلة ،حافظ صحة المبرودين والمشايخ ، ردىء للبواسير والزحير والحبالى والمرضعات والصداع » .

بل قد يذكر المغربى ثمرة من الثمار ليتحدث عن فوائدها الطبية فحسب ، كقوله (١١٤ب/١) : «ويقولون : الرمان وهو معروف ، الواحدة بهاء . فائدة : جلده ملين للطبيعة والسعال ، وحامضه بالعكس ، ومُرّه نافع من التهاب المعدة ووجع الفؤاد . وللرمان ستة طعوم كما التفاح ، وهو محمود لرقته وسرعة انحلاله ولطافته » .

ويبدو من نصوص الكتاب أن صاحبه يعرف التركية وينظم فيها شعرا (انظر مثلا ص : ٦ أ / ٨ ؛ ٦ أ / ١٥) ، كما يعرف الفارسية كذلك ، إذ يقول مثلا (فى صفحة ٢٣ أ/ ١٠) : «ومما ترجمته فيه من أبيات كلستان الشيخ سعدى » ، كما قال بعد أن ذكر اشتقاق كلمة بالفارسية (١٠أ/ ١٤) : «وإنما ذكرت مثل هذا هنا حتى يعلم أن هذا الكتاب اسم على مسمى ، وأنه الفضل العام ، لايخص العربى ، إلاأننى لأكثر من ذلك لئلا يصعب على من لا يعرف الفارسى ، وكثيرماهم » .

وفى الكتاب مادة نافعة لاستنباط كثير من الأحكام عن لغة أهل مصر فى القرن الحادى عشر الهجرى ،

وعوامل تطورها من العربية الفصحى في ضوء القوانين اللغوية التي أرسى قواعدها المحدثون من علماء اللغات . وقد اجتهد المغربي في تعليل تطور الكلمات التي أتى بها في كتابه ، فأصاب المحز في بعضها ، وخانه التوفيق في الكثير منها ؛ لأنه كان في كثير من الأحيان يجهل أصل الكلمة ، ويخدعه ما آلت إليه حالها في شكلها الأخير ، فيربط بينها وبين مادة أخرى لاصلة لها بها .

ومن ذلك قوله (١١٤ ب / ٢٠) : يقولون : فلان استنّاني حتى زهق ، أو استنّيته كذلك . وتأويله بعيد جدا قال (يقصد صاحب القاموس كعادته ، والكلام فيه ٤ / ٢٣٣) : الأَسْتَن والأُسْتَان أصول الشجر البالية ، واحدتها أُسْتَنة . وأستن : دخل في السنة ، قلب : أسنت ، فيمكن أن يحمل قولهم : فلان استنانى على ذلك ، مبالغة أي كأنه انتظر سنة . ولا يخفى ما فيه من البعد » .

فهو في هذا المثال يربط بين كلمة : « استنّى » في العامية المصرية ، « وأستن » « كتابه » و « فلمه » ، ثم حركت الفاء مقلوب « أسنت » التي أوردها صاحب القاموس . ولو بحث قليلا لعلم أن أصل الكلمة هو : « استأنى » بمعنى انتظر[1] ، فسقطت الهمزة ، وأغلق المقطع بتشديد النون ، أو بعبارة أخرى استغنى عن المد بالتضعيف ، وتلك ظاهرة تعرفها اللغة العربية في تطورها ؛ كقولهم في : «بالُوعة » « بلُّوعة » ، وهي الكلمة التي تطورت عندنا الآن إلى « بَلَّاعة » تبعاً لقانون المماثلة الصوتية بين الحركات[2] .

ويحار المغربي حين يكشف عن كلمة من الكلمات العامية في القاموس ، فيجدها في شكلها الأخير تماثل كلمة أخرى ، لاصلة بينهما في المعنى ؛ كقوله : (٣٠ أ / ٤) « ويقولون على معلم الأولاد : فقى ، ولم تعلم ؛ لأن الفَقْى لغة وادٍ باليمامة ، ونخل لبني العنبر » . وأصل هذه الكلمة ، كما هو معروف : « فقيه » ، سقطت منها الهاء ، وهي من الأصوات الخفية التي تسقط كثيرا من أواخر الكلمات في العامية ، مثل هاء الغائب في قولنا :

---

(١) انظر لسان العرب (أنى) ١٨ / ٥١

(٢) انظر لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوي ١٢٣ ؛ ٣١٦

بالكسر تبعاً لقانون المماثلة الصوتية بين الحركات ..

ولكنه كان فى بعض الأحيان يتوقف ، إذا لم يكن على علم بأصل الكلمة ، كقوله (١٤ أ / ٨) : « ويقولون للبرسيم : ربّة . ولم أعرف فيه شيئاً الآن » ! والذى لم يعرفه المغربى يوجد فى لسان العرب لابن منظور ، وهو لم يرجع إليه . قال فى اللسان (ربب) ١ / ٣٩٢ : « والرِّبّة بالكسر نبتة صيفية . وقيل هو كل ما اخضر فى القيظ من جميع ضروب النبات . وقيل : هو ضروب من الشجر أو النبت فلم يحدّ. والجمع الربب » . ومثل ذلك أيضاً قوله (٣٥ ب / ١٤) : « ويقولون : فف طلع النهـــار ، يريدون سرعة الشىء وكنت أفهم أن هُفّ حكاية صوت من يطفئ السراج . ولم أنظر فيها شيئاً فانظرها » .

وأحيانا يقطع المؤلف بأن الكلمة لاأصل لها ، كقوله (١٣٢ أ/ ٢) : «يقولون : ورّيت فلانا كذا ، يريدون : أطلعته عليه ، أى أريته له . وليس له أصل » . ويبدو أن أصل هذا الفعل هو : «رَأَى » بتضعيف الهمزة ، وعندما سقطت الهمزة أصبح الفعل : « رَوَّى » وهو مايستعمله العراقيون حتى اليوم ، فيقولون : «رَوَّيتُه إياه » بمعنى أريته إياه . أما لهجة مصر فقد حدث فيها قلب مكانى بين الراء والواو ، فصار الفعل : «وَرَّى » .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة للقلب المكانى منتشرة فى ثنايا الكتاب ؛ كقوله (٢٣ ب / ١٢) : «ويقولون : زِحْلِفة ، على الدابة المسماة : سلحفاة » فقدجهرت السين فى هذا المثال بسبب مجاورتها للام المجهورة ؛ ثم حدث القلب المكانى بين اللام والحاء ، وقصرت حركة الفاء بسبب انتقال النبر .

وكقوله (٢٥ ب / ٧) : «ويقولون سقّف على يديه أو بيديه ولم أنظره » ، فأصل هذا الفعل «صَفَّق » فحدث قلب مكانى بين الفاء والقاف ، ورققت الصاد فصارت سينا . وأغلب الظن أن القاف كانت قد قلبت هى الأخرى همزة ، كما يحدث الآن فى معظم بلاد مصر ،

غير أن الكتابة التقليدية المحافظة كانت تستر مظهر هذا التطور[1].

ومثل ذلك القلب المكانى الذى نعرفه فى كلمة : «ملعقة» وتطورها إلى «معلقة» هذا القلب المكانى كان معروفا كذلك فى أيام المغربى ؛ يقول (٤٩ب/١٢) : «ويقولون : مَعْلَقة لآلة يؤكل بها ويشرب . ولم أرها فى القاموس ، والذى فيه : رجل ذو مَعْلَقة ، كمرحلة ، يتعلق بكل ما أصابه ، انتهى . ويمكن بالقياس أن تكون الآلة : مِعْلَقة بالكسر ، تعلق الطعام والشراب . أو يقال : إنها ملعقة ، بتقديم اللام من اللعق »... وما سبق أن قلناه فى قاف «صفق» يمكن أن يقال هنا فى قاف «ملعقة» . وانظر كذلك عنده (٥٤ب/٣) .

وكما أن القلب فى هذه الكلمات قديم منذ أيام المغربى ، أو ربما قبل ذلك ، فإن ضياع أصوات مابين الأسنان من العامية المصرية قديم هو الآخر ، نجد له أمثلة كثيرة عند المغربى ؛ فمن أمثلة ضياع «الذال» وتحولها إلى «دال» قوله (٩٢ب/١) : «ويقولون فى البيب : فلان ندل ، بالإهمال ، وإنما هو نذل بالمعجمة» وقوله (١٠٨ب/٤) : «ويقولون : فلان يهدرم الكلام . وله أصل ؛ قال : الهذرمة سرعة الكلام والقراءة ، إلا أنه بالمعجمة » ، وقوله (١٢٥ أ/١١) : «يقولون : فلان جلس حِدًا فلان ، أى قريبا منه . وهى تصحيف عن حذائه ، بالذال المعجمة » .

ومن أمثلة ضياع «الثاء» وانقلابها «تاء» قوله (٦٣أ/١٩) : «يقولون على الشجر : أتْل ، بالمثناة ، وإنما هو أثْل بالمثلثة ، واحده أثلة » ، وقوله (٦٧ أ/ ١٨) : «ويقولون : أكلنا الشىء ورمينا تِفْله . والصواب : الثُّفل بالمثلثة وبالضم » ، وقوله (٩٦ أ/٧) : «ويقولون : تُوم بالمثناة وإنما هو ثُوم بالمثلثة » .

ومن أمثلة ضياع «الظاء» وتحولها إلى «ضاد» قوله (٧١ ب/١) «ويقولون : حَنْضَل ، على الحنظل ، بالظاء المشالة ، وليس له وجه ؛ فإن الحنضل الغدير الصغير » !

---

(١) انظر هنا كذلك : لحن العامة والتطور اللغوى ص ٦٥ (هامش ١) وصفحة ٣٥٦ .

ولم تكن العامة فى عصر المغربى ، تهمز كثيراً من الكلمات التى تهمزها الفصحى ، تماماكما ننطق اليوم : «رفا التوب » بدلاً من « رفأ الثوب » (٩أ/١) ، ومثل ذلك أيضاً قوله (٩٨أ/١٦) : «يقولون : يزوم عليه إذا هم به أن يغلبه . وفى القاموس : زأم كمنع : أكل أكلا شديداً ، وزأمه ذعره . . . وهذا قد يناسب قولهم : فلان زام علىّ ، أى ذعرنى » . ومثل هذا الفعل كان مضارعه : «يزأم» بفتح العين كيمنع ، غير أنه لما ضاع منه الهمز من عينه ، تصرف تصرف الأجوف ؛ مثل : قال يقول ومات يموت ، ورام يروم .

ويضرب قانون المماثلة بسهم وافر فى تطور معظم الأمثلة التى ذكرها المغربى ؛ كقوله (٢٤أ / ٢٠) : «ويقولون : عمل له الفرح بزَفَّة : وليست الزَّفَّة بهذا اللفظ فى اللغة . . . وأنسب من هذا أن الزُّفَّة بالضم تطلق على الزُّمرة . والزَّفَّة دائما فى زمرة ، إلا أنهم حرفوها من الضم إلى الفتح . وفيه مافيه » ، فتحول ضمة الزاى هنا إلى فتحة سببها المماثلة الصوتية مع فتحة الفاء .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله (٦٢أ/١٠) : «ويقولون : كحك العيد وإنما هو الكعك . خبز معروف ، فارسى معرب » ، فقد همست العين هنا فتحولت حاء ، بسبب المماثلة الصوتية بينها وبين الكاف المهموسة .

أما كلمة : «صُرْم» التى يطلقها المصريون على الدُّبر ، فلم يعرف المغربى أنها متطورة عن كلمة «سُرْم» الواردة فى القاموس المحيط (٤/١٢٨) فى قوله : «السُّرم بالضم مخرج الثفل وهو طرف المعى المستقيم» . فقال المغربى (١٠٢ب / ٣) : « ويقولون على الاست : صُرم ، ولم يعلم . قال : صَرَمه يصرِمه صَرْماً ويضم : قطعه قطعا. وصرم الرجل : قطع كلامه . والاسم الصُّرم بالضم » فقد خلط المغربى هنا بين كلمة «صُرْم» المتطورة عن «سُرْم» وكلمة «صُرْم» بمعنى قطع . والسبب فى انقلاب السين صادا هو المماثلة

الصوتية بين السين والراء ؛ لأن الراء في العربية ذات قيمة تفخيمية ؛ وهي تميل إلى تفخم الأصوات المجاورة لها ، كقولنا : «طور» في «ثور» و«صور» في «سور» و«أخرص» في «أخرس» و «رَقَص» في «رفس» و«ضَرْب» في «درب» وغير ذلك .

أما إذا حدثت هذه المماثلة في الزمن القديم أي في عصور الاحتجاج اللغوي ، فإن المغربي يعترف بها ، شأنه في ذلك شأن سائر اللغويين ؛ كقوله (٤١ب/٨) : «ويقولون – ولكن يقع من البعض : فلان يزدق ، أي يصدق . وهو يصدق ؛ قال في القاموس : الزدق بالكسر لغة في الصدق ، وأنا أزدق منه» ، فقد جهرت الصاد هنا بسبب مجاورتها للدال المجهورة ، فتحولت زايا مفخمة ، وكتبت بالزاي المعروفة ؛ لعدم وجود رمز للزاي المفخمة في الكتابة العربية .

والاعتراف بالتطور القديم في الألفاظ ، وعدّه من الفصيح ، له أمثلة أخرى في الكتاب كقوله (٤٣ب/١٣) : «ويقولون لمن ولدله مولود : أيّ يوم سُبوعه . وكان القياس : أسبوعه ، ولكن قال (القاموس ٣ / ٣٦) : «والأسبوع من الأيام والسُّبوع وبضمهما» ، وقوله (١٢٩ أ/ ٩) : «يقولون : علوان الكتاب ، باللام ، وهو صحيح كالعنوان بالنون» ، فمما لاشك فيه أن الأصل هنا هو كلمة «عنوان» ، وأن الثانية متطورة عنها بسبب تأثير قانون المخالفة الصوتية بين النونين في هذه الكلمة ، غير أن ذلك قد وقع من العرب في عصور الاحتجاج ، ولذلك روى لنا على أنه جائز وصحيح ؛ إذ مقياس الصواب والخطأ هنا ، هو السماع وعدمه عند هؤلاء اللغويين الذين رووا لنا هذه الألفاظ .

أما السبب في تطور كلمة : «نصف» في العامية إلى «نُصّ» في قوله (٣٤ أ/١٠) «ويقولون : نُصّ فضة ، وإنما هو نصف . قال (القاموس ٣ / ٢٠٠) : النصف مثلثة : أحد شقي الشيء» – فهو أن الفاء من الأصوات المهموسة التي تخفى بعض الشيء عند النطق ، فيبدو كأن الصوت السابق عليها مضعف .

وأما إطلاقهم «أتانة» على أنثى الحمار، بدلا من «أتان» (١٠٩ أ/ ٨) فهو متفق مع الاتجاه العام إلى إلحاق تاء التانيث بمعظم المونثات السماعية إن أريد الاحتفاظ بالتأنيث فيها؛ مثل قولنا: «خمرة» فى «خمر» و«كبدة» فى «كبد» و «عقربة» فى «عقرب» و «سكينة» فى «سكين» وما إلى ذلك.

ويبدو من بعض أمثلة الكتاب شيء من التطور فى لغتنا الحالية، لغة التخاطب فى مصر، عنها فى عصر المغربى. ومن أمثلة ذلك انقلاب القاف غينا فى قولنا: «زغزغ» بدلا من «زقزق» التى كانت اتزال مستعملة فى عصر المؤلف؛ إذ يقول (٤٢ ب/ ١٦): «ويقولون: زقرقه ليضحك. قال فى المختصر: الزقزقة ترقيص الطفل. وفى القاموس: الزقزقة الضحك الضعيف والخفة وصوت طار عند الصبيح، وترقيص الصبى، كالزقزاق بالكسر، ولكن خلاف المشاهد فإن الزقزقة الآن: العبث باليد، وتخريكها فى خاصرة الصبى ليضحكه. وهذا خلاف التدقيص: فانظر فيه»..

فالتطور الحادث فى هذا اللفظ فى عصر المؤلف، كان فى معناه لا فى صوته، ولكن الذى حدث عندنا الآن بالإضافة إلى ذلك هو تحول القاف إلى غين. وانقلاب القاف غينا أمر يعرفه السودانيون، وبعض قرى جنوبى العراق. وعندنا من هذه الظاهرة فى عاميتنا المصرية مثال آخر هو قولنا: «مش غادر» بمعنى: لاأقدر.

وقد عرف المغربى أصل كلمة: «فين» (١٢٠أ/ ٦) وأنها كانت فى الأصل: «فى أين» فسقطت الهمزة، وهذا مايوافقه عليه العلماء المحدثون[1]. غير أنه ضل فى البحث عن أصل كلمة: «إيمتا» فى قوله (٣ب/ ٩): «ويقولون إذا وعد أحد بشيء مثلا: فيقول له: إيمتا يكون. وليس لها وجه إلا أن تكون (إى) زائدة. ومتى للسؤال عن الوقت، أو أن (إى) وحدها حرف جواب، فكأنه يقول إذا قيل له: نعم

(١) انظر: اصول الكلمات العامية، لحسن توفيق العدل ص ٦٠.

ما أشرتم به منى ؟ » . والحقيقة أن هذه الكلمة ليست مركبة من (إى) و (متى) كما يبدو فى الظاهر ، بل الذى حدث هو أن «منى» سكنت ميمها للسرعة فى النطق ، فجئ بهمزة الوصل ؛ لئلايبتدأ بساكن ، وعندما انتقل النبر إلى هذه الهمزة طالت حركتها بعض الشىء ، فلذلك كتبها المغربى بالياء : «إيمتا» .

وعلى الرغم من عدم معرفة المغربى باللغة العبرية ، فإنه استطاع أن يصحح التعبير العبرى الشائع عند من يشتغلون بالسحر من العامة ، وهو :

אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה = أكون الذى أكون (يعنى أنا من أنا) ، إذ يقوله العامة : «أهيا شراهيا» وقد جعله المغربى : «إهيا أشر إهيا» وهو قريب من النطق العبرى الصحيح وهو : «إهْيهْ أشِرْ إهْيه» ، وإن كان المغربى قد ظن أن هذا التعبير يونانى وهما منه ؛ فقال (١٢١ب/١٣) : «يقولون : أهيا شراهيا . قال : وهو خطأ ، وإنما هو : إهيابكسر الهمزة — أشر إهيا ، بفتح الهمزة والشين . أى الأزلى الذى لم يزل ، يونانية » .

وهناك فى الكتاب أمثلة كثيرة لتطور الصيغ فى العامية المصرية ؛ فمن أمثلة تطور صيغة (فُعْلُول) ، بضم الفاء ، إلى (فَعْلُول) ، بفتحها . قوله (٩٦أ/٣) . «يقولون . صاحب بَلعوم ، أى كثير الأكل ، فيفتحون الباء ، وإنما هو بالضم مجرى الطعام فى الحلق » ، وقوله (٩٦ب/١٥) : «ويقولون : الخرطوم بالفتح ، وإنما هو الخُرْطُوم بالضم ، كزنبور : الأنف أو مقدمه » ، وقوله (١١٦ ب / ٨) : «ويقولون : أعطاه العَرْبُون ، بفتح العين مع أنه بضمها » .

ومن أمثلة تطور (فِعليل) ، بكسر الفاء ، إلى (فَعْليل) بفتح الفاء قوله (٦٥ب/١) : «ويقولون : البَرطِيل شيخ كبير ، فيفتحون الباء ، وإنما هو البِرطيل بالكسر » ، وقوله (٤٢ ب/ ١٠) : «يقولون : فلان زَنْدِيق ، فيفتحون الزاى ، وإنما هو بكسرها » ، وقوله (٩٠ب / ١) : «يقولون : قَنْديل بفتح القاف ، وإنما هو بكسرها » .

ومن أمثلة تطور صيغة (مِفْعَلة) بكسر الميم ، إلى (مَفْعَلة) بفتح الميم قوله

(١١٣ ب/ ٥) : « ويقولون لما يوضع فيه القنديل : مَدْخَنة ، بفتح الميم ، وإنما هى مِدْخنة ، كمكنسة » .

ومن أمثلة تطور (فعُول) بفتح الفاء وضم العين ، إلى (فُعُول) بضمهما قوله (٢٥ أ / ٢٠) : «ويقولون لمايسف : سُفُوف ، بضم السين ، وهو سَفُوف كصبور » ، وقوله (٥٤ب / ١) : «ويقولون : لُعُوق ، بضم اللام ، وإنما هو بفتحها . قال فى القاموس : لعوق كصبور : مايُلعق » .

أما تطور دلالة الألفاظ فى عامية مصر فى عصر المغربى ، فلها أمثلة كثيرة كذلك فى الكتاب ، فمن أمثلة تخصيص الدلالة استعمالهم كلمة : «الطرب» فى معنى الفرح ، كما نستخدمها فى أيامنا هذه ، وهى تدل فى الأصل على حركة الفرح والحزن ، يقول (١٦أ /١٨) : «ويقولون : حصل لفلان الطرب ، يخصونه بحركة الفرح ، وهو يطلق على حركة الفرح والحزن من الأضداد . ورجل مطراب وطروب . وقد ظهر الآن أن قولهم : لو اتفق حماران لأطربا ، أى حركا حركة حزن ، لا حركة فرح ؛ إذ صوت الحمار بمفرده يحرك حركة الحزن ، ويستفاد منه ، فكيف مع الازدواج » .

ومن أمثلة انتقال الدلالة بسبب إحدى علاقات المجاز المرسل ، استعمالهم «تشنيف الآذان» بمعنى إسماعها ماحسن من الأصوات ، وهو فى الأصل يعنى إلباسها الشنف وهو القرط . يقول المغربى (٢٦ب / ١٥) : « ويقولون عند السماع : شنفتم المسامع ، فلومشى معهم أحد فى تشنيف المسامع لما شنفوا المسامع . ومعنى ذلك أن الشنف بالكسر وسكون النون . . . هو القرط للأذن ؛ وشنف الجارية فتشنفت : جعل لها شنفا ، مثل قرطها القرط فتقرطت . فكأن المسمع بحسن سماعه ألقى فى المسامع شنوفا وجواهر ، فصيح قولهم : شنفتم المسامع » .

أما «تقطيع فروة» الإنسان ، فمعناه في عصر المغربي : ذكره بالمحاسن ، يقول (١٢٩ ب / ١٣) : «يقولون : كنا نقطع فروتك ، أي كنا نذكرك بالمحاسن ، ولكن لا يخفى مافيه من الإيهام ، فإن الفروة للخروف ، والفروة جلد الرأس » . وقد تطور هذا المعنى في عاميتنا الحالية ، فأصبحنا لانفهم من هذا التعبير إلا ذكر مساوىء الانسان لامحاسنه .

هذا هو تحليل بعض الظواهر اللغوية التي يفيض بها هذا الكتاب الممتاز ، وهو وثيقة لغوية نادرة في دراسة اللهجات العربية . وكم كنا نتمنى لوجاد علينا التراث العربي بالكثير من أمثال هذه الوثيقة في عصور العربية المختلفة ، وبقاعها المتفرقة ، لتلقى بعض الضوء على مراحل التطور اللغوى لكثير من الظواهر اللغوية في العربية .

رمضان عبد التواب